نوفمبر 2023

عقدة الذنب تجاه المسألة اليهودية:

كيف مارس الغرب شعيرة «التكفير عن الخطيئة» على حساب القضية الفلسطينية؟

الدكتور عبد الرزاق غراف
باحث أول
مركز الخليج للأبحاث

جميع الحقوق محفوظة لمركز الخليج للأبحاث ٢٠٠٢ - ٢٠٢٣ ©

@Gulf_Research Gulfresearchcenter gulfresearchcenter gulfresearchcenter
www.grc.net
23 YEARS
Gulf Research Center
Knowledge for All

منذ بداية «عصر الشتات» سنة 70 ميلادي بعد طرد الرومان ليهود فلسطين مرورا بـ «محاكم التفتيش» في اسبانيا بعد سقوط غرناطة (١٤٥٢م) وصولا الى «الهولوكوست» الألماني النازي (١٩٣٩- ١٩٤٥)، ولقرون طويلة عاش اليهود ضمن ما أصطلح على تسميته تاريخيا بـ «مجتمع الشتات» أو «مجتمع التيه» أو «مجتمع الدياسبورا»، وذلك تحت وطأة الاضطهاد السياسي والاجتماعي والديني الكنسي المسيحي في معظم الدول الأوروبية ومن طرف معظم شعوبها ونخبها بل وساستها، هذا الوضع التاريخي الذي انغمس في الوجدان الأوروبي ظل حبيسا منتظرا فرصة «التكفير» عن نفسه، الى أن جاءت موجة الاستعمار الأوروبي المتوسع على حساب إرث «الرجل المريض» الذي كا ـت تُكنّى به الدولة العثمانية خلال فترة احتضارها، حيث وجد المشروع الصهيوني المرتهن للحلم اليهودي في إقامة كيان يهودي على «أرض الميعاد» وفق التعبير التوراتي الفرصة الدولية المواتية للدفع به للوجود، مستغلا انهيار الدولة العثمانية وضعف الأقطار العربية التي كانت تحت لوائها من جهة، والدعم الغربي اللا محدود المدفوع بعقيدة التكفير وعقدة الذنب التاريخية تجاه اليهود تزامنا مع تصاعد مظاهر «معاداة السامية» وما تلاها من تصاعد النفوذ الصهيوني في دواليب صنع القرار الأمريكي والأوروبي وتزايد سيطرتهم المالية والإعلامية هناك.

الحركة الصهيونية ومعاداة السامية «قراءة في حيثيات العلاقة»:

تحت طائلة «معاداة السامية» التي اختصرت رؤية الغرب (المسيحي) المعادية لليهود في الوقت الذي لم يكن لها أي وجود في الشرق (الإسلامي) استطاعت الحركة الصهيونية التي تأسست سنة ١٨٩٠ الترويج لمظلومية اليهود التاريخية رغم كل المصاعب التي واجهتها في بدايتها وبخاصة بعد ظهور التيارات القومية الراديكالية المعادية لليهود وللسامية، بداية بألمانيا نهاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما تم الترويج بقوة لكتابات «يوغين دورنغ» وتحت اشراف مباشر من اعلى سلطة للرايخ الألماني المستشار «ادوارد بسمارك»، واستمر هذا النهج المعادي للسامية في ألمانيا لغاية الحرب العالمية الثانية عندما تبنّت الحركة النازية فلسفة «ستيوارت تشامبرلان» كقاعدة لتعاملها مع اليهود، وتوسعت الحركة المناهضة لليهود لاحقا الى معظم دول القارة الأوروبية تحت دافعية انتشار «بروتكولات حكماء صهيون» التي فضحت اسرار رغبة اليهود في السيطرة على السياسة الدولية، حيث توسعت مظاهر معادة السامية بخاصة

في وسط وشرق أوروبا في دول على غرار روسيا وبولندا والمجر والنمسا التي أضحت عاصمتها فيينا مقرا لمنظمة «كارل لويغر» المعادية للسامية، ولم يسلم غرب أوروبا من موجة الانتشار هذه ففي فرنسا حاملة راية «التحرّر اليهودي» راجت الدعاية المناهضة لليهود فيها حيث كانت كتابات «إدوارد درومونت» وكتابه «فرنسا اليهودية» نموذجا على ذلك، وامتد ذلك الى الولايات المتحدة الامريكية حيث كانت مؤلفات «هنري فورد» وفي مقدمتها كتابه «اليهودي العالمي» وصحيفته «ديربون اندبندت» التي كانت قاطرة مناهضة اليهود في أمريكا، وفيها جسّد «فورد» مخاطر سيطرة اليهود على النظام المالي العالمي وبخاصة بعد إزاحة الستار عن «بروتكولات حكماء صهيون».

رغم حالة التناقض بين «اليهود» و»السامية» في العديد من الأوجه، فالمنطق الأنثروبولوجي التاريخي يتحدث على أن اليهود الأصليون ما هم إلا جزء يسير من الشعوب السامية التي ينتسب إليها العرب في حد ذاتهم، فضلا على أن اختلاط اليهود لما يقارب من ٢٠٠٠ سنة مع الشعوب الأوروبية وبخاصة الآرية منها جعلهم يفقدون الكثير من خصائصهم السامية، ومن هنا يبرز الإشكال الأكبر وهو كيف نسب اليهود أنفسهم للسامية بل أختزلوها في ولأنفسم؟، فالثابت أن الجاليات اليهودية في أوروبا وفي مقدمتهم المفكرين الصهاينة الأوائل أمثال «ثيودر هرتزل» صاحب كتاب «الدولة اليهودية» و»ناتان بيرنبون» و»حاييم ويزمان» و»ليو بنسكر» وغيرهم كثير لا يوجد ما يثبت انتمائهم للسامية، إلا أنه ورغم هذا التناقض إلا أن الحركة الصهيونية استغلت حالة الاضطهاد لصالحها فيما بعد تحت مسمى «معاداة السامية» التي أصبحت قانونا مقدسا في أوروبا والولايات المتحدة بل وعلى النحو الذي تجاوز فيه هذا المفهوم حدوده نحو آخر لا علاقة له به وهو «معاداة الصهيونية» بعد نجاح الأخيرة في مسعاها نحو ترسيخ أهدافها «القومية» في كيان مستقل يمثل اليهودية الصهيونية رغم معارضة كثير من اليهود أنفسهم لهذا التوجه القومي.

من الإبتداع الى التوظيف/

بعد أن نجحت الحركة الصهيونية من ابتداع «معاداة السامية» كمفهوم ترويجي لمظلومية اليهود التاريخية في أوروبا على النحو الذي على جعل من تاريخ البشرية كلها هو تاريخ العداء للسامية حسب ما ارادت الحركة

الصهيونية التسويق له، انتقلت بعدها الأخيرة للمرحلة الثانية وهي توظيف «معاداة السامية» لخدمة أهدافها القومية المرتبطة بدعم وحماية الغرب جهودها نحو إقامة دولة قومية لليهود على الأراضي الفلسطينية، وكانت البداية بضمان دعم الأمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية التي كانت فلسطين فترة ما بين الحربين تحت وصايتها وانتدابها، ورغم أن فكرة إقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين بالذات كانت محل خلاف داخل اقطاب الفكر الصهيوني انفسهم، كون بعض قادة هذه الحركة على غرار «بنسكر» لم يكونوا يربطون إقامة هذا الكيان بأرض فلسطين بحد ذاتها إنما بتوفير حيز جغرافي معين في أي مكان لإقامة هذا المشروع وكانت من ضمن الخيارات المطروحة (الأرجنتين)، إلا أن قادة آخرين للحركة وعلى رأسهم «هرتزل» كانوا يفضلون فلسطين في تفضيل للأبعاد الدينية التوراتية

وفي اطار ما يعرف بـ «أرض الميعاد»، رغم أن «هرتزل» ذاته كان يرى في «معاداة السامية» بل والمسألة اليهودية برمتها على أنها مشكلة سياسية قومية قبل أن تكون دينية، وجب معالجتها ضمن السياق السياسي الدولي والقوى الكبرى المسيطرة على النظام العالمي وفي مقدمتها القوى الأوروبية، هذه الأخيرة التي من الواجب عليها مساعدة اليهود في انشاء وطنهم القومي يكون وفق قاعدة «رابح – رابح»، فهو سيضمن لليهود الخلاص من الاضطهاد التاريخي لهم الذي وقف حاجزا امام قدرتهم على الأندماج داخل المجتمعات الأوروبية، كما سيضمن للغرب التخلص من تداعيات «معاداة السامية» التي أفرزها التواجد اليهودي في مجتمعاتهم بل والتخلّص من «عقدة الذنب» التي تلاحقه كون دعم جهود الحركة الصهيونية لإنشاء وطن قومي لليهود يعد بمثابة «التكفير» الحقيقي عن هذا الذنب.

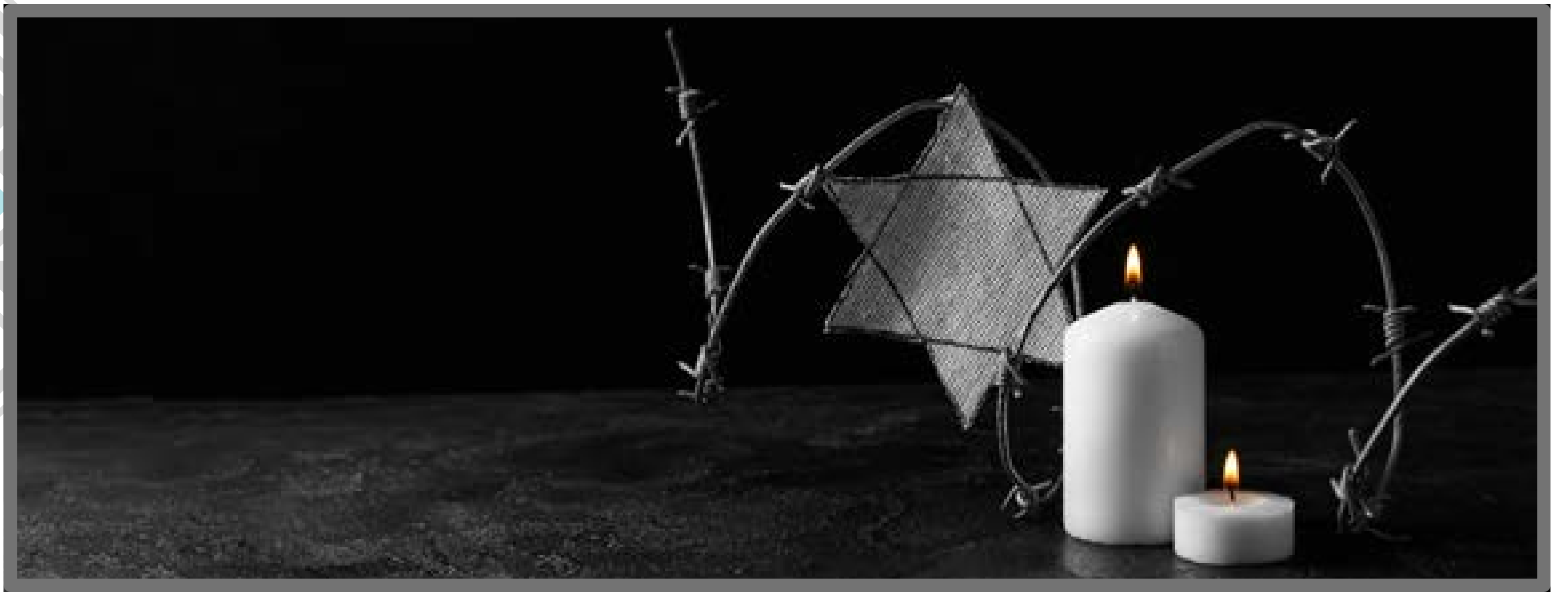

إلا أن الواقع أن نجاح هذه العملية السابقة كانت على حساب الشعب الفلسطيني صاحب الجغرافيا والتاريخ والذي أُريد له أن يتحمل تكلفة هذا التوافق «الغربي – الصهيوني»، والذي وجد نفسه غريبا على أرضه تُمارس عليه شتًى أنواع القتلى والإرهاب والتهجير والفصل العنصري والاستيطان، وفي حال ما ابدى أدنى مظاهر مقاومة هذا المد فسيجد نفسه أمام حتمية مواجهة ليس إسرائيل فحسب بل ومعها الغرب مجتمعا بكل ما يمتلك من مقدّرات عبرها تم إيجاد إسرائيل وعبرها تضمن استمرارها.

الهولوكوست «اللحظة الفارقة»:

أسئلة على غرار:

لماذا لم تُسأل إسرائيل عن امتلاكها السلاح النووي في حين يُمنع ذلك على دول اخرى في المنطقة؟ ولماذا لإسرائيل الحق في «الدفاع عن النفس» دون غيرها؟ ولماذا تُقدّم وتُراعى مصلحة إسرائيل على مصلحة داعميها الغربيين في حد ذاتهم؟ ولماذا تشكّل إسرائيل «الاستثناء» الذي لا يُطبق القانون الدولي عليه؟ ولماذا تُسخّر لإسرائيل كل المنابر دون غيرها؟ ولماذا لا تحاسب إسرائيل بجرائمها امام المجتمع الدولي وهيئاته ومؤسساته وهي التي ضربت وما زالت تضرب بعرض الحائط كل قرارات الشرعية الدولية؟

هي كلها أسئلة تحمل جوابا واحدا: « الهولوكوست »

وعلى الرغم من فظاعتها الإنسانية وهي التي خلفت ستة مليون ضحية حسب الرواية الصهيونية التي تحوم حولها بعضها الشكوك ورغم أن جهود انشاء وطن قومي لليهود في أرض فلسطين قد انتقلت من التنظير الى التطبيق طوال فترة ما بين الحربين العالميتين بعد وعد بلفور المشؤوم برعاية بريطانية أي قبل حدوث «الهولوكوست»، غير أن «الهولوكوست» وبسبب تضخيمها السياسي والإعلامي تحولت الى «مرجعية» لتبرير كل مساعي الحركة الصهيونية ليس نحو إقامة وطن قومي لليهود سابقا وهو ما تم لهم في ماي ١٩٤٨ فحسب، إنما لتبرير كل الدعم الغربي لإسرائيل فيما بعد طوال عقود من الصراع مع الجانب العربي والفلسطيني والذي ما زال مستمرا لغاية اليوم.

لم تحسم الهولوكوست قرار الغرب بـ «حتمية» إيجاد ووجود إسرائيل فحسب وهو الذي كانت تحوم الشكوك قبل ذلك حول جديته على دعم قيام دولة اسرائيل، بل حسمت الكثير من الآراء التي لم تكن قد حسمت رأيها في دعم قيام هذا الكيان وهي الآراء التي كانت متجذرة

عند حيز كبير من اليهود في حد ذاتهم من الذين كانوا يعارضون مثل هذا التوجه فضلا عن حالة عدم الايمان المطلق لدى النخب السياسية في الغرب الى حتمية هذا القرار، ومعه حسمت كثيرا مما أصبح اليوم من «المسلّمات» التي أصبحت لدى الغرب أقرب الى «العقيدة السياسية» الراسخة، التي يوجب بها وبسببها ولأجلها دعم «إسرائيل» في كل شيء ولكل شيء. لم يخرج دعم الغرب الراهن لإسرائيل في حربها المدمرة على قطاع غزة عن هذا التبرير التاريخي المتمحور حول «عقدة الذنب»، وما يكتنفه من حتمية «التكفير» التي أصبحت بمثابة القاطرة الأمامية التي تقود قطار الدعم الغربي لإسرائيل الذي معه وجب تجاوز كل المعطيات الاستراتيجية والبراغماتية التي تفرضها مصالح الغرب ذاته، فلإسرائيل الأولوية عمّا سواها ومصالحها أولى من كل المصالح، ورغم أنه ليس في الظاهر ما يدل على امتلاك الغرب أدنى نية للتخلّي عن هذا النهج في المدى المنظور على مستوى دوائر صنع القرار، إلا أن الثابت أن ملامح التغير على مستوى القواعد الاجتماعية الغربية قد بدأت تلوح في الأفق على ضآلتها، وهي التي كانت غائبة بل ومغيبة قبل هذا كنتيجة للسيطرة والنفوذ الإعلامي والمالي الصهيوني العالمي، غير أن تطور طرق وآليات وصول المعلومة بدت تطفو معالمها على السطح لدى الرأي العام الغربي، وهو التغير الذي ورغم عدم إمكانية التعويل على جني ثماره في القريب المنظور إلا أن ارهاصاته بعيدة المدى لا يمكن لأي طرف ايقافها أو تفاديها.

جميع الحقوق محفوظة لمركز الخليج للأبحاث ٢٠٠٢ - ٢٠٢٣ ©

Gulf Research Center
Knowledge for All

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

www.grc.net